

أريك إيمانويل شميت  
مسيو إبراهيم وزهور القرآن

رواية

ترجمة وتقديم محمد سلاموي



تمثل هذه الرواية قصة حب نادرة بين السيد إبراهيم المسلم الذى تخطى السبعين والصبى اليهودى موييس (أى موسى)، وهى لا تحكى عن الحب الذى يمكن أن ينشأ بين رجل وامرأة وإنما ذلك الذى ينشأ بين روحين، والروح لايهم إن كانت لرجل أو لامرأة، لأن الحب فيها ليس للمظهر الخارجى وإنما للمخبر الداخلى.

إن مثل هذه العلاقة النادرة تصبح فى عالمنا هذا أكثر ندرة مع كل يوم جديد، ومع كل صراع جديد يتفجر بين ليلة وضحاها، ذلك أن الصراع لا مكان فيه للروح لأن منطلقاته تكمن فى التعصب والعنصرية وكرهية الإنسان لآخيه الإنسان، رجلاً كان أو امرأة.

من هنا تجيء قيمة رواية «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» التى تتخطى كل تلك العقبات العنصرية والدينية والحضارية لتقدم لنا علاقة إنسانية جميلة بين مسلم ويهودى، بين شرقى وغربى، بين كهل وصبى .. هى بذلك قصة حب بين شطرى هذا العالم، الشطران المتصارعان أبداً: الشرق والغرب اللذان يجتمعان هنا فى عناق نادر لكنه - لقوة القصة- يبدو وكأنه عناق أبدى.

محمد سلماوي



6 221102 015387

دار الشروق  
www.shorouk.com

MOHAMED KHATAB



مسیو ابراهیم وزهور القرآن





إريك إيمانويل شميت

## مسيو إبراهيم وزهور القرآن

رواية

ترجمة وتقديم

محمد سماوي

دار الشروق

الطبعة الأولى

سبتمبر ٢٠٠٥ م

الطبعة الثانية

ديسمبر ٢٠٠٥ م

Eric-Emmanuel Schmitt  
Monsieur Ibrahim et les fleurs du Coran  
© Éditions Albin Michel S.A., 2001

صورة الغلاف من فيلم  
مسيو إبراهيم وزهور القرآن

رقم الإيداع ١٦٢٨٤/٢٠٠٥  
الترقيم الدولي 0 - 1334 - 09 - 977 - I.S.B.N.

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

القاهرة: شارع سيدي بيه المصري - مدينة نصر  
تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)  
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com  
www.shorouk.com

## فرانكفورت.. وعمر الشريف .. وقصة هذا الكتاب

مقدمة بقلم  
محمد سماوي

على مائدة الصديق العزيز عمرو موسى أمين عام جامعة الدول العربية والسيدة زوجته كانت ضيفة الشرف هي سيدة مصر الأولى سوزان مبارك . . كنا في فرانكفورت أثناء انعقاد معرض الكتاب الدولي الذي حل فيه العالم العربي ضيف شرف لأول مرة في تاريخ المعرض ، وكانت السيدة سوزان مبارك قد شاركت في فعاليات المعرض وافتتحت مركزا للعلاقات الدولية به .

أما مناسبة العشاء فكانت حصول الممثل المصري عمر الشريف على جائزة معرض فرانكفورت في التقريب بين الشعوب ، وذلك لدوره في فيلم «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» Monsieur Ibrahim et les Fleurs du Coran ، وقد

حضرت السيدة سوزان مبارك تكريم عمر الشريف في قاعة المؤتمرات بالمعرض وسلمته الجائزة بنفسها .

كان ضيوف العشاء هم : وزير الثقافة الفنان فاروق حسنى ، والمهندس إبراهيم المعلم رئيس مجلس إدارة «دار الشروق» وزوجته أميرة أبوالمجد ، المشرقة على إدارة كتب الأطفال بالدار ، وأنا وزوجتى الفنانة التشكيلية نازلى مذكور .

أما مكان اللقاء فكان أحد أجمل مطاعم مدينة فرانكفورت ، وهو مطعم خاص يقع داخل متحف «شتيدل» الشهير ، الذى يضم مجموعة قيمة من الأعمال الفنية تمتد من القرن الـ ١٦ إلى العصر الحديث ، وتحمل توقيعات : بونيتشلى وهولبين ورامبرانت وفرمير ومونييه وثان جوخ وسيزان وماتيس وبيكاسو وآخرين .

وأثناء العشاء كان عمر الشريف يعلق على مقال كتبه قبل ذلك ببضعة أسابيع حول فيلم «مسيو إبراهيم» ، وأشدت فيه بقيمته الفنية وبمضمونه الفكرى ، الذى قدم صورة عن الإسلام والمسلمين تختلف عن تلك الصورة المشوهة التى تقدمها السينما الأمريكية وبعض أجهزة الإعلام الغربية ، وأخذ عمر الشريف يحكى لسيدة فرنسية حضرت معه هى وزوجها بعض ما قلته فى مقالى ، وجاءت جلستى أثناء العشاء إلى جوار السيدة الفرنسية وزوجها اللذين علمت أنهما لوران بيتان وزوجته ميشيل منتجى فيلم «مسيو إبراهيم» ، وكانا قد حضرا

مع عمر من باريس فى نفس اليوم لتسلم الجائزة والعودة فى صباح اليوم التالى .

وكان من الطبيعى أن يدور الحديث على المائدة عن الفيلم الذى قالت لى منتجته إنها اشترت قصته من كاتبها إريك إمانويل شميت بعد أن ذاع صيتها فى أوروبا كلها وحقت مبيعات كبيرة عند نشرها ، فقد بيع منها فى فرنسا وحدها ٣٠٠ ألف نسخة ، وتمت ترجمتها إلى عشرين لغة أخرى فى العالم كانت آخرها هى الإيطالية التى بيع منها ما يزيد على ٨٠ ألف نسخة .

وبدا غريبا أن رواية «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» التى اتخذت لها بطلا مسلما ولاقت كل هذا النجاح لم تترجم إلى العربية ، وتحمس إبراهيم المعلم كعادته كلما سمع عن كتاب ذى قيمة وقال لميشيل بيتان إنه مستعد لنشر الرواية بالعربية إذا اقتنع محمد سلماوى بأن يترجمها بنفسه ، وقد أبدت ميشيل بيتان سعادتها لذلك قائلة إنها من أكثر المتحمسين لرواية شميت ، وأخبرتنا أن حقوق الترجمة مملوكة للناسخ الفرنسى ألان ميشيل ، الذى تعتبر الدار التى يملكها واحدة من كبرى دور النشر الفرنسية ، فقلت إننى شاهدت فى ذلك اليوم جناحهم بالمعرض ، ففرح إبراهيم المعلم لمشاركتهم فى المعرض ووعد بأن يذهب فى اليوم التالى مباشرة لجناحهم ليتفق معهم على حقوق الترجمة بالعربية .



وسألتني السيدة سوزان مبارك عن رأيي في أداء عمر الشريف في هذا الفيلم فقلت إن هذا الدور يمثل إعادة ميلاد لعمر، فبعد أن أمضى سنوات طويلة معتمداً في جميع أدواره على موهبته ووسامته معا فإنه في هذا الدور تنازل تماماً عن وسامته واعتمد على موهبته وحدها.

وقالت إحدى الحاضرات: لكنني مع ذلك وجدته وسيما بالرغم من منظره الرث وكبر سنه في الفيلم.

فقلت: تلك هي موهبة عمر الشريف، فدور مسيو إبراهيم يعتمد على جمال الروح، وقد استطاع عمر بموهبته أن يخرج هذا الجمال الداخلي الكامن في الشخصية، وفعل ذلك ببساطة وتلقائية وكأنه لم يكن يمثل.

ويعتبر ذلك الجمال الداخلي الذي جسده عمر الشريف من خلال شخصية مسيو إبراهيم هو مفتاح هذه الرواية التي تمثل قصة حب نادرة بين السيد إبراهيم المسلم الذي تخطى السبعين والصبي اليهودي موييس (أي موسى)، وهي لا تحكى عن الحب الذي يمكن أن ينشأ بين رجل وامرأة وإنما ذلك الذي ينشأ بين روحين، والروح لا يهم إن كانت لرجل أو لامرأة، لأن الحب فيها ليس للمظهر الخارجي وإنما للمخبر الداخلي.

إن مثل هذه العلاقة النادرة تصبح في عالمنا هذا أكثر ندرة مع كل يوم جديد، ومع كل صراع جديد يتفجر بين ليلة

وضحاها، ذلك أن الصراع لا مكان فيه للروح، لأن منطلقاته تكمن في التعصب والعنصرية وكراهية الإنسان لأخيه الإنسان، رجلاً كان أو امرأة.

من هنا نحىء قيمة رواية «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» التي تتخطى كل تلك العقبات العنصرية والدينية والحضارية، لتقدم لنا علاقة إنسانية جميلة بين مسلم ويهودي، بين شرقي وغربي، بين كهل وصبي.

وتبدأ الرواية وكل من بطلتها في مكانه البعيد عن الآخر، رغم أن الحياة قد وضعتهما في موقع واحد هو الشارع الأزرق La Rue Bleue، الذي يسكن فيه الصبي موييس اليهودي والذي يقع فيه دكان البقالة الذي يملكه مسيو إبراهيم، فلا حديث بينهما ولا مودة بل هناك قدر من الازدراء من جانب الصبي الفرنسي لصاحب البقالة المسلم، «ففي النهاية ما هو إلا عربي!»، وهذا يعني أنه مستباح، لذلك يقوم موييس بسرقة بعض علب الأكل المحفوظ من دكانه دون أدنى تأنيب من ضميره، لكن ما إن يبدأ الكاتب في نسج خيوط تلك العلاقة الإنسانية بين الرجلين حتى تسقط كل تلك المظاهر الخارجية للأشياء، فنكتشف أن العربي ليس عربياً وحتى الشارع الأزرق ليس أزرق، وفي النهاية يقول موييس إن اسمه ليس موييس بل محمد.

وفي تلك القصة العجيبة يكون الشرق في شخص مسيو

إبراهيم هو المانع للحب والحكمة وللنظرة الفلسفية السامية لهذا الكون بما يحويه ، فالعلاقة التي تنشأ بين الرجلين تأخذ الصبى الفرنسى من عالم الماديات والمال التي تجسدها سرقاته لمسيو إبراهيم ، ومن عالم الرذيلة والحسيات التي تجسدها علاقاته ببائعات الهوى ، إلى عالم الحب والروحانيات والحكمة السامية ، وبالتوازي مع تلك الرحلة الروحية تأخذنا الرواية فى رحلة جغرافية من الغرب (فرنسا) إلى الشرق (منطقة الأناضول) ، حيث الحب والجمال والموسيقى والرقص الصوفى والسمو الروحى .

وحين تكتمل الرحلة يكون الصبى قد وصل إلى المعرفة الكبرى فصار أكثر ثراء فى روحه وفى عقله وفى نظراته للحياة ، ويكون مسيو إبراهيم قد أكمل مهمته فترك هذا العالم إلى عالم الخلود ، حيث «الإنساع اللانهائى» كما يقول لمويس حين يجده يبكى على فراقه .

مع ذلك فإن إبراهيم ليس نبيا ولا ملاكا ، فهو آدمى من لحم ودم قد تكون له أيضا زلاته ، فهو يراوغ مدير صالة بيع السيارات ليوهمه بأنه يعرف القيادة ، وهو إنسان واقعى يؤمن بجدوى التجربة الحياتية ولا يعتمد على الكتب النظرية ، كما أنه يحتسى الخمر بين آن وآخر ، لكنه يجسد فلسفة الإسلام فى الاعتماد على الله والإيمان بما ورد فى القرآن ، ومن ثم الجملة التى ظل يرددتها دائما لمويس «إنى أعرف ما فى قرأتى» ، لذا

تجىء شخصية مسيو إبراهيم على قدر كبير من الشراء الدرامى ، وليست شخصية مسطحة أحادية الجانب .

والقصة الإنسانية التى تجمع بين مسيو إبراهيم ومويس قد تبدو قصة حب خاصة بين شخصين محددين ، لكن الحقيقة أن رواية «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» هى قصة حب بين شطرى هذا العالم ، إنهما الشطران المتصارعان أبدا : الشرق والغرب اللذان يجتمعان هنا فى عناق نادر لكنه - لقوة القصة - يبدو وكأنه عناق أبدي .

إن اهتمام المؤلف بالجمال الداخلى يتخطى موضوع الرواية إلى أسلوبها الأدبى ، فقد يعجب القارئ العربى من ذلك الأسلوب الذى يبعد تماما عن اللغة الأدبية المناسبة ويلتزم بأسلوب حيادى لا مكان فيه لأى زخرف ، أسلوب اعتمد فيه المؤلف على لغة وصفية تكاد تكون تلغرافية ، لأنه اختار أن يترك للمعنى الكامن فى مواقف الرواية ذاتها - لا فى أسلوبها - أن يبعث الجمال من بداية الرواية إلى نهايتها ، فلتنظر مثلا إلى مشهد اللقاء الأول بين مويس وأمه التى لم يرها منذ هجرته وهو طفل رضيع ، وعلى قدر السيطرة التى فرضها المؤلف على المشاعر الكامنة فى هذا الموقف والتى كان يمكن أن تحمِلنا على الفور إلى الميلودراما الرخيصة ، لقد اختار المؤلف أن يتم هذا اللقاء المؤثر وسط علب طلاء الحوائط التى تزكم رائحتها الأنوف ، وحيث تبذل الأم الجهد فى محاولة ألا يلطخها الطلاء الذى لم يكن قد جف بعد .



وقد كان على الترجمة أن تلتزم بهذا الأسلوب المختصر إلى حد التقشف، والذي صيغت فيه الرواية حتى وإن بدا ذلك غريبا بعض الشيء على القارئ العربي، لأن الترجمة السليمة لا تكمن في نقل معنى الرواية فقط وإنما يجب أن تسعى أيضا لنقل الأسلوب الأدبي الذي اختاره المؤلف، وتغيير الأسلوب إنما يغير المعنى، فالشكل والمضمون في الأدب لا يتفصلان ولا يمكن أن يتغير أحدهما دون أن يؤثر على الآخر.

وتشعب الحديث بين الحضور على مائدة السيد عمرو موسى في مختلف الاتجاهات، ومالت على ميشيل بيتان تبنى إعجابها بشورية عيش الغراب، فمددت يدي إلى الطبق الموضوع أمامي أتناول الشورية قبل أن تبرد.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت مع الصديق إبراهيم المعلم إلى قسم الناشرين الفرنسيين بمعرض فرانكفورت وتوجهنا إلى جناح ألبان ميشيل، حيث أخذت أبحث عن بقية كتب إريك إمانويل شميت بينما انشغل هو بمسألة حقوق النشر العربي، وقد سعدت أن وجدت لشميت ثلاث روايات أخرى غير «مسيو إبراهيم»، كل واحدة منها تتحدث من خلال قصة إنسانية مثل قصة مسيو إبراهيم والصبي مويس عن دين من الأديان، فقد تبع المؤلف رواية «مسيو إبراهيم» التي صدرت عام ٢٠٠١ برواية أخرى في العام التالي أسماها «أوسكار والسيدة الوردية» Oscar et la Dame Rose متخذًا من

المسيحية موضوعا لها، ثم في عام ٢٠٠٤ أصدر رواية «طفل نوح» L'Enfant de Noe وكانت عن اليهودية، كما وجدت له رواية أخرى كنت قد قرأتها عند صدورها عام ١٩٩٧ عن البوذية بعنوان «ميلارپا» Milarepa، وقد أطلق شميت على هذه السلسلة من الكتب التي تعالج مختلف الأديان اسم «سلسلة غير المرئي» Le Cycle de L' Invisible.

كانت هذه السلسلة هي أحدث إنتاج لشميت، وهي التي حققت له شهرة كبيرة في فرنسا وخارجها، لكنه أصدر قبل ذلك أربع روايات أخرى منذ بدأ يكتب في بداية التسعينيات، كما كتب ثمانى مسرحيات، لكن تظل رواية «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» هي أشهر أعماله منذ صدرت عام ٢٠٠١، وهو نفس العام الذي حصل فيه إريك إيمانويل شميت على الوسام الأكبر للأكاديمية الفرنسية على مجمل أعماله.

محمد سلماوى

**مسيو إبراهيم وزهور القرآن**

**رواية**

حين بلغت سن الحادية عشرة كسرت حنريرى ودهت إلى  
بائعات الهوى.

كان حنريرى هذا حصالة صغيرة من الخرف للامع لوبها  
لئون القىء، بها فتحة تسمح بدخول قطعة النقود ولا تسمع  
بمخروجه، احتارها لى والدى هكذا باتجاه واحد، لأنها كانت  
تمثل فلسفته فى الحياة القائلة بأن النقود جعلت للحفظ وليس  
للإنفاق.

كان هاك ماتا هراك فى أمعاء الحزير، حصيدة أربعة  
أشهر من العمل، وذات صباح قبل أن أتوجه إلى المدرسة قال  
لى أبى. «مويس (\*) إنى لا أفهم.. هاك نقود ناقصة من  
الآن فصاعدا ستكتب فى كراسة المطبخ كل ما تفقه أثناء  
خروجك للتسوق».

إذن لم يكن يكفى أن يصرخوا فى وجهى فى المدرسة كما  
فى البيت، وأن أتولى العسبل والمداكرة والطبيع وأن أقوم  
بالمشتريات، لم يكن يكفى أن أعيش وحدى فى شقة كسرة  
مظلمة، خالية، لا حب فيها، وأن أكون عمدا وليس أسا

---

(\*) نعى بالفرنسية موسى



لمحام بلا عمل وبلا روجة، بل كان على أيضا أن أنهم  
بالسرقة، وبما أنني أصبحت الآن موضع شك فلا فعلها إذن

كان هناك إذن مائتا فرانك في أحشاء الخنزير، ومائتا فرانك  
كان هو ثمن الفتاة الواحدة في شارع «پارادى»<sup>(\*)</sup>، كان هذا  
المبلغ هو ثمن وصول الرجل لسن البلوغ.

فتيات الهوى اللاتي قابلتهن في البداية سألسي عن سني  
وطلبن رؤية بطاقتي الشخصية، بالرغم من صوني، وبالرغم  
من ورنى - كنت بديا كجوال السكر - لكنهن تشككن في  
صحة ما قلت من أن سني ١٦ عاما لا بد أنهن ظنن لسوات  
بشاهدسي أمر أمامهن في الطريق وأبا أحمل شبكة التسوق  
المليئة بالخضار الذي كنت أنزل لشراؤه.

في نهاية الشارع، تحت السوارة، كانت هناك فتاة جديدة،  
كان بجسدها استدارات جميلة مثل نساء الرسوم، أطلعتها  
على نقودي فابتسمت.

- أعينك حقا ١٦ عاما؟

- طبعاً، منذ صباح اليوم.

صعدنا سويا بلطابق العلوي، لم أكد أصدق، كان عمرها  
٢٢ سنة، كانت تكبرني لكنها كانت لي بالكامل، شرحت لي  
كيف أغتسل ثم كيف أطارحها الغرام.

(\*) تعني بالفرنسية المزدوم

كنت بالطبع أعرف ذلك مسبقاً لكني تركتها تشرح لي حتى  
تكون على راحتها، ثم إن صوتها كان يعجبني فقد كانت  
تغلب عليه مسحة حزن بسيطة، كنت أشعر طوال الوقت أنني  
أكاد يعيش على، وهي النهاية رتت على شعري برفق وقالت -  
يجب أن تأتي في المرة القادمة ومعك هدية صغيرة.

إذن فقد كن على أن أتى بهدية لكى يسيت، لا يهم، أنا  
الآن رجل وقد تم تعميدي بين فحدي امرأة، كادت قدمي  
نظيران من على الأرض بينما كانت ساقاي مارالنا ترتعدان

دخلت الشقة جرياً وانجذبت مباشرة إلى عرفتني وأحدثت  
أنظر حولي باحشا عن أئمن ما أستطيع تقديمه، ثم ركضت  
عائداً إلى شارع «پارادى» كانت الفتاة ما زالت تحت السوارة  
فأعطيتها «دبدوبي» المحملي.



كان ذلك هو نفس الوقت تقريبا الذي عرفت فيه مسيو  
إبراهيم.

كان مسيو إبراهيم عجوزاً منذ عرفناه، كنا بإجماع ذاكرتنا  
في شارع «بلو»<sup>(\*)</sup> وشارع «فوبور بواسونيير»<sup>(\*\*)</sup> نشاهد

(\*) تعني بالفرنسية الأزرق

(\*\*) تعني بالفرنسية السماوي

مسيو إبراهيم كل يوم في محل بقائه من الثامنة صباحاً وحتى منتصف الليل ، ينتقل ما بين الخربة وأدوات السطيف ماداً ساقاً في الممر والأخرى تحت علب الكبريت ، مرتدياً «چاكت» رمادياً فوق قميص أبيض ، وله أسنان عاجية وشارب مشعث وعيون بلون المستنق المتأرجح ما بين الأحصر والسي ، كانت بشرته الفمحية قد امتلأت بالبقع الداكنة الدالة على الحكمة والتي تأتي مع التقدم في السن ، ذلك أن مسيو إبراهيم كان في نظر الجميع يعتبر حكيماً ، بلا شك لأنه ظل لمدة أربعين عاماً على الأقل العربي الوحيد في حي يهودي ، بلا شك لأنه كان يتنسم كثيراً ويتحدث قليلاً ، بلا شك لأنه لم يكن يشغل على الإطلاق بما يشعل دن البشر الأحياء خاصة الدريسيين منهم ، فقد كان مسيو إبراهيم ملتصقاً دائماً بكرسيه الصغير مثل فرع السات الذي يلصق بالساق المراد تطعيمها ، فلا شاهده أحد وهو يرص بصانعه على أرفف المحل ، ولا عرف أحد أين يحتوى ما بين منتصف الليل والثامنة من صباح اليوم التالي .

كنت كل يوم أقوم بالتسوق وأطهو الوجبات ، لم أكن أشتري إلا المعلبات ، وإذا كنت أشتريها يومياً فلم يكن ذلك بمرص أن تكون طازجة ، وإنما لأن والدي لم يكن يترك لي إلا النقود التي تكفي يوماً واحداً فقط ، كما أنه كان من الأسهل على أن أطهو الوجبات يوماً بيوم .

حين بدأت أسرق والدي لأعاقبه على شكه في أخذت أسرق مسيو إبراهيم أيضاً ، كنت أشعر بعص الخجل ، ولكن كي أتعلب على شعوري هذا كنت أقول لنفسي وأب أدفع له الحساب :

.. ما هو في النهاية إلا عربي !

كنت كل يوم أحرق في عيني مسيو إبراهيم ، وكان ذلك يحضني الشجاعة .

.. ما هو في النهاية إلا عربي !

.. لست عربياً يا مومو . . . إنني من الهلال الذهبي .

لحملت مشطرواتي وحررت إلى الشارع مدهولاً ، لقد سمعني مسيو إبراهيم وأنا أحدث نفسي ، قد يكون سمعني وأنا أفكر أيضاً ، وربما كان يعرف أنني أغشه .

في اليوم التالي لم أحف عنه أي من علب الطعام المحفوظ لكنني سألته :

.. ما هو الهلال الذهبي ؟

والحق أنني كنت قد أمضيت الليل بطوله أنصوّر مسيو إبراهيم جالساً على طرف هلال ذهبي يطير في سماء مليئة بالنجوم .

- إنه الإقليم الذي يبدأ من الأناضول وحتى بلاد فارس يا مومو .

وفي اليوم التالي أردت قائلاً وأن أخرج حافظة نقودي .  
- اسمي ليس مومو إنه موسى .

وفي اليوم التالي كان هو الذي قال :

- أعلم أن اسمك موسى ، ولهذا أباديك مومو لأنه أقل هبة  
وفي اليوم التالي سألته وأنا أعد باقي نقودي :

- وما دخلك في هذا؟ إن موسى هو اسم يهودي وليس عربيا  
- لست عربيا يا مومو . . إني مسلم .

- إذن لماذا يقولون إنك العربي الوحيد في الشارع إن لم تكن  
عربيا؟

- لأن عربي يا مومو تعني في عالم القالة «مفتوح من الشامة  
صباحا إلى منتصف الليل حتى في أيام الأحاد» .

هكذا كانت تدور المحادثة بلسان جملة واحدة في اليوم ، كان  
لدينا وقت ، هو لأنه عجوز ، وأما لأنني صغير ، ومرة كل  
يومين كنت أسرق منه علبه طعام محفوظ .

أتصور أما كان سيلز ما عام كامل أو ربما اثنا عشر لحي نجري  
محادثة مدتها ساعة لو لم تكن التقينا بريجيت باردو .

سرت في شارع «بلو» حالة هرج ومرج ، وتوقفت فيه  
حركة المرور تماما ، وأعلق الشارع هناك فيلم سينمائي يجري  
بصوير .

كل من له غريزة حسية في شارع «بلو» أو شارع «بايرون»  
أو «موبور بواسويير» كان في حالة تأهب ، النساء يردن ، يؤكد  
إن كانت على نفس درجة الجمال التي يقدحها عنها ، والرجال  
لم يعودوا يفكرون في شيء ، حديثهم كله توقف عند فتحة  
سراويلهم ، فريجيت باردو هذا ! بريجيت باردو الأصلية  
بشحمها ولحمها .

أما أنا فوقفت في الباحة أنطع إليها ، كنت تذكرني نقطة  
جيرايا الذين يسكنون في الدور الرابع ، كانت قطة صغيرة  
جميلة تعشق التمدد في الشمس بالشرفة ، لم تكن نجيا أو  
تنفس أو ترمش بأهدابها إلا لتثير الإعجاب .

حين دقت فيها النظر وحدث أيضا أنها تشبه في الحقيقة  
عانيات شارع «بارادي» ، دون أن أدرك أن عانيات شارع  
«بارادي» هن في الواقع اللاتي كن يتكرن في شكل بريجيت  
باردو كي يجتذبن الرائي ، وأحيرا كانت الدهشة الكبرى حين  
شاهدت مسيو إبراهيم يعبر عتبة دكانه لأول مرة على الأقل  
منذ خلقت . قام مسيو إبراهيم من على كرسيه الصغير وخرج  
إلى الشارع .



بعد أن شاهدت تلك المخلوقة الصغيرة بريجيت باردو وهي تنمت بسحرها للكاميرات، فكرت في الفتاة الجميلة ذات الشعور الذهبية والتي أصبحت تمتلك «دندوبى» الصغير، وقررت أن أزل إلى دكان مسيو إبراهيم وأن أنهر فرصة وجوده خارج الدكان كي أسرق بعض علب الطعام المحفوظ.

يا للكارثة! لقد عاد مرة أخرى وجلس خلف خزيتي، كانت عيائه تصحكان فرحا وهو يتأمل باردو من فوق قوالب الصابون ومشائك العسيل، ولم أكن قد رأيت على هذا النحو من قبل.

- هل أنت متزوج يا مسيو إبراهيم؟

- بالطبع أنى متزوج.

لم يكن معتادا على أن يوجه له أحد أسئلة.

فى تلك اللحظة كان بإمكانى أن أقسم أن مسيو إبراهيم لم يكن عجوزا بالدرجة التى كان الجميع يعتقدونها.

- مسيو إبراهيم، تصور أنك فى قارب مع زوجتك وبريجيت باردو ثم عرق القارب، ماذا كنت تفعل؟

- أراهنك أنه سيتصح أن زوجتى تعرف السباحة.

لم أر فى حياتى عينيّن تصحكان بهذا القدر، كانتا

تضحكان إلى حد القهقهة، حتى كادتا تطلقان صخب الجحيم داته

وفجأة اكتظ المكان بالناس وأحد مسيو إبراهيم وصع الاستعداد، فقد دخلت بريجيت باردو الدكان.

- صباح الخير يا مسيو، هل لديكم ماء؟

- بالطبع يا أنستى.

وهنا حدث ما لا يمكن تصوره، فقد ذهب مسيو إبراهيم بنفسه لإحضار زحاجة مياه من على أحد الأرفف وقدمها لها.

- شكرا يا مسيو، كم نمنها؟

- أربعون فرانكا يا أنستى.

وشهقت بريجيت، وأنا كذلك، فزجاجة المياه كانت تساوى آنذاك فرانكين وليس أربعينا.

- لم أكن أعرف أن الماء نادر هنا إلى هذا الحد.

- ليست المياه هى النادرة يا أنستى وإنما السجوم الحقيقيون.

قال ذلك بطريقة ساحرة وبابتسامة لا تقاوم فتوردت وجهت بريجيت باردو قليلا وأخرجت الأربعين فرانكا وذهبت.

لم أصدق عيني.

- إن لديك جرأة يا مسيو إبراهيم.

- إيه يا صغيرى مومو، إن علىّ أن أعوض جميع تلك العلب  
التي تسرقها منى.

كان هذا هو اليوم الذى أصبح فيه أصدقاء، كان من  
المعكّر بعد ذلك أن أذهب لسرقه علب الطعام المحفوظ من  
مكان آخر، لكن مسيو إبراهيم أخذ علىّ تعهدا

- مومو إذا كان عليك أن تستمر فى السرقة فافعل ذلك  
عدي أنا

فى الأيام التالية أعطانى مسيو إبراهيم عدة أفكار كى أوفر  
لنفسى بعض المال دون أن يلحظ والذى ذلك: أن أقدم له خمر  
الأمس أو أول أمس بعد أن أدفنه قليلا فى القرون، أن أصيف  
بعض «الشيكوريا» إلى بن القهوة، أن أعيد استخدام أكياس  
الشاي أكثر من مرة، أن أخفف سبذ «الوجوليه» بالسيد  
الرخيص الذى لا يريد ثمن رجاءه على ثلاثة مرات، ثم  
كانت قمة ذلك كله فى تلك الفكرة الجهنمية التى أثبتت أن  
مسيو إبراهيم حبيب حقا فى سحق هذا العالم: أن أستبدل  
عجينة اللحم المحفوظ بسوق أرخص محض لإطعام  
الكلاب

وبعصل مساعدة مسيو إبراهيم أشق أمامى عالم الكبار ولم  
يعد يمثل ذلك الحائط المبيع الذى كنت أرتطم به، وهما هى يد قد  
امتدت إلى الآن من خلال هذا الشق.

تحكمت من اقتصاد عاتى فراك، فذهبت لأشت من جديد  
رجولتى.

شارع «پارادى»، مشيت مباشرة فى اتجاه «البوابة»، حيث  
مكان المالكة الجديدة لـ «دومى»، أحصرت لها هذه المرة  
صدقة بحرية كنت قد تدفيتها كهدية، صدقة حقيقية من  
أصداف البحر، البحر الحقيقى.  
انتسمت لى الفتاة.

فى تلك اللحظة انطلق من الحارة رجل بحرى مدفوعا  
كالعار، ثم تبعته إحدى المومسات وهى تصيح  
- حرامى! امسكوا الحرامى!

بلا تردد مددت ساقى إلى الأمام فتعثر الحرامى ووقع على  
الأرض على بعد أمتار قليلة فارتحمت موفه.

نظر إلى اللص فوجد أننى مجرد طفل فانتسم واستعد كى  
يوسمى صرنا، لكن لأن الفتاة كانت ما زالت تصيح فى  
الشارع، ما إن وقف اللص على قدميه حتى فر هاربا، من  
حسن حظى أن صيحات المومس منحى بعض القوة

أقبلت تتأرجح فوق كعبيها العالين، مددت لها حقيبة يدها  
فاحتصتها وهى فى قمة السعادة إلى صدرها المكتز الذى كان  
لا بد يجيد التأوه.

.. شكرا يا صغيرى . كيف يمكنتى أن أكافئك؟ .. أتريد أن  
أمنحك مرة مجانا؟

كنت كبيرة فى الثلاثين ، لكن مسيو إبراهيم كثيرا ما قال لى  
إنه يجب ألا تخرج امرأة .  
.. حس .

صعدنا معا ، بدت مالكة «دبدوبى» غاضبة من أن زميلتها  
قد سرقنتى منها ، وحين مررنا أمامها همست لى فى إذنى :  
.. تعال خذا ، أنا أيضا سأمنحك مرة مجانا .  
لم أنتظر الغد . . .

• • •

مسيو إبراهيم وباتعات الهوى جعلوا حياتى مع أبى أكثر  
صعوبة ، فقد بدأت أقدرن بينهما ، وهى حين كنت أشعر  
بالرودة مع أبى كنت مع مسيو إبراهيم والمومسات أشعر  
بالدفء والنور .

كنت أنظر إلى المكتبة العالية المتوارثة فى العائلة ، كل تلك  
الكتب التى من المفترض أنها تحوى خلاصة العقل الإنسانى ،  
ومجمل القوانين ودقائق الفلسفة ، كنت أنظر إليها فى الظلام  
.. «مويس» أغلق التوافذ إن الصوء يتلف المجلدات .

ثم كنت أنظر إلى والدى وهو يقرأ فى مقعده الوثير منعزلا  
داخل دائرة الصوء المبعث من المصباح المحاور له والتى كانت  
تتركز على الصفحات كالصمير الكاشف ، كان مغلقا على  
نفسه فيما يقرأ من معارف وعلوم ، ولم يكن يعيرنى اهتماما  
يزيد على ما قد يعيره الإنسان لكلب ، على أن والدى كان  
يكره الكلاب ، ولم تكن لديه حتى الرغبة فى أن يقذف لى  
نقطة عظم من معارفه وعلومه ، وإذا أحدثت بعض  
الصوضاء ..

.. أنا آسف .

.. مويس اصمت ، إنى أقرأ ، إنى أعمل ، إنى ..

العمل كان هو الكلمة الكبرى والتبرير المطلق .

.. آسف يا بابا .

.. حمدا لله أن أخاك پوپول لم يكن كذلك .

پوپول كان هو نقيض العدم الذى كنت أسويه ، كان والدى  
يقذف فى وجهى دائم بذكرى شقيقى الأكبر پوپول كلما  
أخطأت فى شىء . «پوپول كان دائما متموقا فى المدرسة ،  
پوپول كان يحب الرياضيات ، لم يكن يلوث حوض  
الاستحمام ، پوپول لم يكن يشول على جانبى مقعد المرحاض ،  
پوپول كان يحب كثيرا قراءة الكتب التى يحبها بابا»

لم تكن كل هذه الحقائق أسوأ من حقيقة أخرى هى أن أمى



تركت البيت مع پوپول بعد ولادتي بفترة وجيزة، صحيح أن العيش مع ذكرى أليمة صعب على الإنسان، لكن العيش إلى جوار پوپول، المثال الحى للكمال فى كل شىء، كان أكبر بكثير مما أستطيع تحمله

- ياها هل تعتقد أن پوپول كان سيحبني؟

أخذ والدى يتفحص وجهى محاولاً فهم مقصدى.

- يا له من سؤال! تلك هى إجابتي: يا له من سؤال!

تعلمت أن أنظر إلى الناس من خلال أعين والدى يتوجس وازدراء، أم أن أنحدث مع البقال العربى (حتى لو لم يكن عربياً، طالما أن عربى تعنى فى البقالة مفتوح فى المساء وفى أيام الأحاد) أو أسدى معروف لإحدى بائعات الهوى، فكانت أشياء أحترنها فى درج سرى داخل نفسى، حتى لا تكون جزءاً رسمياً من حياتى.

- لماذا لا تبتسم أبداً يا مومو؟

سألى مسيو إبراهيم.

كانت تلك لطمة حقيقية، لم أكن مستعداً لها.

- الانتسام هو إحدى خصائص الأعياء يا مسيو إبراهيم وأنا غير متيسر الحال.

وبالطبع أخذ يبتسم.. كى يغيظنى.

- أعتقد إذن أنتى غنى؟

- إن لديك دائماً أوراقاً نقدية فى الخزانة، لست أعرف أحداً يوجد أمامه طوال اليوم هذا القدر من المال.

- لكن تلك الأوراق النقدية هى التى تمكننى من دفع ثمن الصائغ والإيجار، وفى نهاية الشهر لا يتبقى لى منها إلا القليل.

ثم أخذ يتسم أكثر وكأنه يريد أن يعكر على حياتى.

- مسيو إبراهيم، حين قلت إن الانتسام هو إحدى خصائص الأعياء كنت أريد القول إنه من خصائص السعداء.

- وهذا هو خطأك، إن الانتسام هو الذى يجعل الإنسان سعيداً

- هراء.

- حاول.

- أقول لك هراء.

- مع أنك مهذب يا مومو.

- أبى مضطر أن أكون كذلك، وإلا أخذت فوق دماغى.

- أن يكون المرء مهذباً شىء جيد، أن يكون لطيف شىء أفضل، جرب أن تبتسم، سترى.

طلب منى مسيو إبراهيم ذلك بذوق شديد وهو يناولنى  
علبة كرنب محفوظ من أفصل نوع، فكان علىّ أن أجرب.

فى اليوم التالى كنت كالمريض حقا الذى أصابه مس فى  
الليل: أخذت أبسم لكل الناس.

- إنى آسف يا سيدتى لم أفهم تدريب الرياضيات.

إتسامة!

- لم أتمكن من حل المسألة.

- حسن يا مويس، سأعاود شرحها لك.

كان ذلك جديد تماما علىّ، لا صياح، لا تحذير، على  
الإطلاق.

فى «الكاتين»:

- أيمكننى أن أحصل على المزيد من كريمة «أبو فروة»؟

إتسامة!

- نعم، مع الجبن الأبيض...

وأحصل عليه.

وفى الصالة الرياضية أدركت أننى نسيت حذاء الشمس.

إتسامة!

- لكننى تركتها كى تجف يا أستاذ.

يضحك المدرس ويريت على كتنى.

إنها التمثالة. لم يعد هناك شيء يستطيع مقاومتى، لقد  
منحى مسيو إبراهيم أمضى سلاح، أخذت أمطر العالم أجمع  
بوابل من ابتساماتى. لم يعد أحد يعاملنى كصهر صار.

عد عودتى من المدرسة دخلت شارع «پارادى» وسألت  
أجمل الفتيات تلك السوداء الطويلة التى كانت ترفضى  
دائما.

- هيا؟

إتسامة!

- أنصعد؟

إتسامة!

- هل أكملت الـ ١٦ عاما؟

- بالطبع أكملت ١٦ عاما، منذ فترة.

إتسامة!

صعدنا.

ثم رويت لها أثناء ارتدائى ملابسى، أننى صحفى، وأننى  
أعد كتابا ضخما عن بائعات الهوى.

إتسامة!

.. وأنتى بحاجة لأن تحكى لى قليلا عن حياتها، إذا سمحت .

- أصبح هذا؟ أنتى صحفى؟

ابتسامة!

- نعم، أقصد طالب وصحفى .

بدأت تحدثنى . أحدث أنظر إلى صدرها الذى كان ينص كلما انصعلت فى الحديث، إى غير مصدق، امرأة تحدثنى أيا؟ امرأة؟

ابتسامة!

تواصل الحديث .

انتسامة!

تواصل الحديث .

فى المساء حين عاد والدى ساعدته كالعادة فى حلق معطفه، مررت أمامه فى النور كى أتأكد أنه يرانى .

- هل الطعام جاهز؟

انتسامة!

ينظر إلى فى استغراب .

أستمر فى الابتسام، إنه لشيء متعب فى نهاية اليوم لكنى أواصل الابتسام

- هل ارتكبت حماقة؟

ها تحفى الابتسامة .

لكنى لا أياس .

قل نهاية العشاء ومع الخلو أحاول مرة أخرى .

ابتسامة!

يتفحص وجهى بعدم ارتياح .

- تعال هنا .

أشعر أن ابتسامتى على وشك أن تنتصر .

هاك ضحية أخرى . اقتربت من والدى، هل سبرغب فى أن يقبلنى؟ لقد قال لى مرة إنه كان يحب دائما أن يقبل پوپول، وإيه كان صييا حنوبا، قد يكون پوپول قد فهم حذعة الابتسام هذه مد مولده، أو أن والدتى كان لديها الوقت أن تعلمه إياها .

اقتربت جدا من والدى، ملت على كتفيه، كانت رموش عينيته تطرف بقوة، زدت من ابتسامتى حتى أخذ شدقاي يؤلمانى .

- يجب أن نضع لك جهاز تقويم لأسنانك، إى لم أخط قط أن أسنانك بارزة للأمام إلى هذا الحد .

كان هذا هو المساء الذى قررت فيه أن أذهب إلى مسيو إبراهيم كل ليلة بعد أن ينام والدى .

- إنسى أبا الملام، لو كنت مثل پوپول لكان أسهل على أبى أن يحبني.

- وما أدراك بذلك؟ لقد رحل پوپول.

- ماذا تقصد؟

- قد يكون أنه لم يطق والدك.

- أنظر ذلك؟

- لقد رحل، إن ذلك لدليل.

أعطاني مسيو إبراهيم العملات المعدنية الصغيرة لأساعده في وضعها في لمائف ورقية، وقد هدا ذلك قليلا من روعى.

- هل كنت تعرفه يا مسيو إبراهيم؟ هل كنت تعرف پوپول؟ أريد أن أعرف رأيك أنت فيه؟

ضرب بيده على الخربة وكأنه يجمعها من أن تتكلم.

- مومو دعنى أقل لك شيئا، إنى أمصلك مائة مرة، بل ألف مرة، على پوپول.

- يا سلام؟

سعدت جدا بما قال لكننى لم أشأ أن أظهر ذلك، شددت قبضة يدى وكشرت عن أسناني. من واجب المرء أن يداقم عن أسرته.

- حذار، إنى لا أسمع لك أن تسيء إلى أخى، ماذا لديك ضد پوپول؟

- كان جيدا پوپول، جيدا جدا، لكن اعذرني فأنا أفضل مومو.

كنت كريما معه فقلت عذره

بعد أسبوع أرسلنى مسيو إبراهيم لصديق له، هو طبيب أسنان شارع «پاپيول»، بالتأكيد أن لمسيو إبراهيم معارف كثيرة، وفى اليوم التالى قال لى

- مومو، قلل قليلا من ابتسامتك فهذا القدر يكفي. لا لا لقد كنت أفرح، فقد أكد لى صديقى أن أسنانتك ليست بحاجة لجهاز تقويم وعال نحوى بعينه الضاحكتين.

- تخيل نفسك فى شارع «پارادى» والحديد فى فمك، من هى تلك التى تستطيع من إقناعها أن سلك ١٦ عام؟

فى ذلك كان مسيو إبراهيم على حق، فى هذه المرة كنت أبا الذى طلست منه العملات المعدنية لأصعبها فى اللعائف كرم أهدى نصى

- من أين لك معرفة كل ذلك يا مسيو إبراهيم؟

- أما لا أعرف شيئا، أعرف فقط ما هو فى قرأتى.

صنعت لعائف أخرى.

- مومو، ليس من الخطأ فى المرات الأولى أن تذهب إلى



المحترفات ، يجب دائما الذهاب إلى النساء اللاتي يعرفن  
جيدا عملهن ، لكن بعد ذلك حين تكون هناك تطورات  
عاطفية ، يجب أن تكتفى بالهاويات .

شعرت بالراحة

- هل تذهب أنت أيضا في بعض الأحيان إلى شارع «برادى» ؟  
- «المردوس» مفتوح للجميع .

- إنك تتساهى فقط يا مسيو إبراهيم ، لا تقل لى إنك ما رلت  
تذهب فى سنك هذا !

- ولم لا ؟ هل المكان حكر فقط على القصر ؟

هنا شعرت أنى ارتكبت سخما .

- مومو ، ما قولك فى أن نذهب معا للرهة ؟

- ماذا ؟ هل تتزء أحيانا يا مسيو إبراهيم ؟

ها قد ارتكبت سخما ثانيا ، لد أصعبت لكلامى انتسامة  
عريضة .

- ما أقصده هو أنى دائما أراك على كرمىك هذا .

لكن هذا لم يعنى من أن أكون مسرورا جدا .

فى اليوم التالى صحبنى مسيو إبراهيم إلى باريس ، باريس  
الحميلة ، تلك التى براها فى صور السواح ، نثرها على ضفاف  
نهر السين الذى اكتشعت أنه فى الحقيقة غير مستقيم .

- انظريا مومو ، إن السين يعشق الخسور مثل المرأة المهووسة  
بأساورها .

ثم مشينا فى حدائق «الشارلبيزه» ما بين المسارح وعروض  
الدمى ، ثم «فونور سانت أووريه» ، حيث توجد المحلات التى  
تحمل الأسماء الكبيرة . «لامن» ، «هرميس» ، «سان لوران» ،  
«كاردان» كانت تبدو عربية هذه المحلات الكبيرة المارعة  
بالمقارنة بذاك بقالة مسيو إبراهيم ، الذى لم تكن تريد مساحته  
على دورة المياه لكن لم تكن به مساحته شعرة واحدة غير  
مشعولة ، وحيث توجد الأرفف المكسدة من الأرضية إلى  
السقف ببصائع الاحتياجات الأولية والثانية والثالثة أيضا ، من  
رف إلى رف بارتفاع ثلاثة أرفف وعمق أربعة .

- إيه لحون يا مسيو إبراهيم أن تبدو واجهات محلات الأعياء  
بهذا العقر ، إنها ليس بها شىء .

- ذلك هو الترف يا مومو ، الواجهة ليس بها شىء ، السعر هو  
الذى به كل شىء .

وانتهت بنا الجولة فى حدائق القصر المنكى ، وهما دعانى  
مسيو إبراهيم على كوب عصير ليمون طارح وعاد مرة أخرى  
لحموده الأسطورى على أحد كراسى البار الصغيرة وهو  
يحتسى مشروب «سوزانى» .

- لا بد أنه جميل أن يعيش المرء فى باريس .

- لكنك تعيش في باريس يا مومو .

- لا ، أنا أعيش في شارع «بلو» .

بظرت إليه وهو يستطعم شرابه .

- كنت أعتقد أن المسلمين لا يشربون الكحول .

- نعم لكنني صوفي .

هنا شعرت أنني تدخلت في حياته الخاصة وأن مسيو إبراهيم لا يريد أن يحدثني عن مرضه ، وهذا في النهاية حقه ، فصمت إلى أن عدنا لشارع «بلو» .

في المساء فتحت قاموس «لاروس» الخاص بأبي ، لابد أنني كنت جد قلقا بشأن مسيو إبراهيم ، لأنني في الحقيقة كنت دائما أصاب بخيبة أمل من القواميس .

«الصوفية» : حركة إسلامية روحانية نشأت في القرن الثامن ، تعارض حرفية القوانين الدينية ، وتولي الأهمية الكبرى للعقيدة الداخلية للدين .

ها هي مرة ثانية ، القواميس لا تشرح جيدا إلا الكلمات التي نعرفها بالفعل .

على أي حال ، إن الصوفية ليست مرصا ، وهو ما طمأني بعض الشيء ، إنها طريقة تفكير ، حتى ولو كانت هناك طرق للتفكير تعتبر أيضا أمراضا ، كما يقول دائما مسيو إبراهيم .

ومن محاولتي المستميتة لهم جميع كلمات هذا التعريف اتضح في النهاية أن مسيو إبراهيم بمشروبه الكحولى يؤمن بالله وفق العقيدة الإسلامية ، ولكن بطريقة يبدو أنها تكاد تقترب من الخارجين على الدين ، إذ إن فكرة معارضة القوانين أفلقتني بعض الشيء ، فإذا كنت حرفية القانون هي اتساع القانون بكل دقة ، كما يقول أصحاب القاموس ، فإن لذلك معانى مقلقة مؤداها أن مسيو إبراهيم غير شريف ، لأنه لا يتسع القانون حرفيا ، وأنى بذلك أحاط أنسا لا يجب على مخالطتهم .

لكن في الوقت نفسه إذا كان الترام القانون يعنى أن يصح المرء محاميا مثل والدى ، وأن يكون عابس الوجه ، وأن يملأ المرل كآبة ، فإننى أفصل أن أعارض حرفية القانون مثل مسيو إبراهيم .

ثم أضاف القاموس أن الصوفية أشاها رجلا قديما هما الخلاج والغزالي ، اسمان لاند أن صاحبها يليق بهما العيش في العرف المروية في نهاية الشارع ، شارع «بلو» طبعا ، وبص القاموس على أن الصوفية دين داخلي .

خلال العشاء لم أستطع أن أمتع نفسي من استجواب والدى ، الذى كان يلتهم لحم الصأن المطهو مع الخصرات في صلصلة الطماطم على طريقة «روايال كانا» .

- بابا، هل تؤمن بالله؟

نظر إلىّ ثم قال ببطء:

- لقد بدأت تصبح رجلاً، على ما أرى.

ثم أفهم ما هي العلاقة، وللحظة تساءلت إن كان أحد قد أحبره أنني أذهب لربارة فتيات شارع «بارادي» لكنه أضاف:

- لا إنني لم أصل قط إلى الإيمان بالله.

- لم تصل قط؟ لماذا؟ هل المسألة بحاجة إلى جهد؟

نظر إلى الطلام المخيم على الشقة من حوله.

- أن تؤمن بأن كل ذلك له معنى، نعم لا بد من بذل جهد كبير.

- لكننا في النهاية يهود يا بابا، أنا وأنت.

- نعم.

- وأن تكون يهودياً لا علاقة له بالله؟

- بالنسبة لي لم تعد له علاقة، أن تكون يهودياً هو بكل بساطة أن تحمل الذكريات، الذكريات السيئة.

وبدا بالفعل كمن يحتاج عدة أقراص من «الأسبرين» ربما لأنه تحدث ولم تكن تلك عاداته، لذلك بهض وذهب مباشرة لينام

بعد بضعة أيام عاد إلى المنزل ووجهه شاحب أكثر من المعتاد، بدأت أشعر بالذنب، قلت لمسي ربما كان هذا الخراء الذي كنت أطعمه له هو السبب الذي أفقده صحته.

جلس وأشار إلىّ بأنه يريد أن يقول لي شيئاً، لكنه استغرق عشر دقائق قبل أن يفعل ذلك

- لقد فصلت من عملي يا موييس، هم يعودوا يريدونني في المكتب الذي أعمل به

الحقيقة أنه لم يدهشني قط ألا يرغب الناس في العمل مع والدي، لابد أنه نجح في صدقه المتهمين «لاكتات»، لكن في نفس الوقت لم أتحمّل فقد - محام - محكم أن يتوقف عن أن يكون محامياً.

- سيكون عليّ أن أعود نبحث عن عمل في مكان آخر، سينحتم علينا أن نربط الحرام يا نني.

ذهب لينام، كان من الواضح أنه لا يهمه أن يعرف رأيي في الموضوع.

نزلت لمقابلة مسيو إبراهيم. كان يتسهم وهو يعضغ بعض حبات الفول السوداني.

- ماذا تفعل أنت يا مسيو إبراهيم كي تكون سعيداً؟

- إنني أعرف ما في قرأني

- ربما كان على في يوم ما أن أسرق قرأتك ، بالرغم من أن ذلك لا يحوز حين تكون يهوديا .

- ماذا يعنى بالنسبة لك يا مومو أن تكون يهوديا .

- لا أعرف ، بالنسبة لاني يعنى ذلك أن تكون مكتشا طوال اليوم ، بالنسبة لى هو مجرد شيء يعنى من أن أصبح شيئا آخر .

قدم لى مسيو إبراهيم حبة فول .

- هذاؤك بلى يا مومو ، منذهب غدا لشراء حذاء .

- ولكن . .

- الإنسان يمضى حياته فى مكان من اثنين . إما فى سريرى أو فى حذاءه .

- ليس معى نقود يا مسيو إبراهيم .

- سأشترىه أنا ، إنه هديتى لك يا مومو ، أنت لا تملك إلا روجا واحدا من الأقدام ، عليك أن تعتنى به ، إذا أملك الحذاء فلتغيره لأن قدميك ليس بإمكانك تغييرهما .

فى اليوم التالى لدى عودتى من المدرسة وجدت مطروفا من والدى ملقى على الأرض فى مدخل الشقة المعتم ، ولا أعرف لماذا بمجرد أن رأيت خط والدى بدأ قلبى يخفق بشدة :

«مويس اعذرنى لقد رحلت . ليس لدى شيء يوهلنى أن أكون أبا . . مع پوپو . .»

هما كان بقية الكلام مشطونا ، لابد أنه كان يريد أن يقذف إلى بحملة عن پوپول ، من نوعية .

«مع پوپول كنت أستطيع أن أكون أبا ، لكن ليس معك»

أو «پوپول كان يمنحى القوة والقدرة على أن أكون أبا ، لكن أنت لا» .

باختصار كان هناك شيء مسخيف كان يريد أن يكتسبه لى لكنه خجل من أن يفعل ، على أى حال لقد نبيت بية والدى شكرا .

«ربما التقيا فى يوم ما بعد ذلك حين تكرر ، حين أكون أقل حجلا وتكون قد سامحتنى . الوداع» .

هو ذاك إذن ، الوداع !

«ملحوظة : تركت على المصدة كل المال الذى تبقى لى ، هذه قائمة بأسماء الناس الذين عليك أن تحضرهم بعيدى سيحدثون بأمرك» .

وتبع ذلك قائمة بأربعة أسماء لا أعرفها .

اتخذت قرارى ، كان على الآن أن أنظاھر .

كان من المستبعد تماما أن أعترف بأن والدى قد هجرنى . . .  
بأننى قد هجرت مرتين ، مرة حين هجرتنى أمى بمجرد أن ولدتنى ، ومرة ثانية حين هجرنى أبى بمجرد أن بلغت سن



المراهقة، إذا عُرف عنى ذلك فليس يمنحني أحد أية فرصة، ما هو ذلك الشيء العطش الذي كان بي؟ ما هو ذلك الشيء الذي يجعل حب الناس لي مستحيلاً؟

كان قرارى نهائياً، سأبصر بوجود أبى، سأنصرف أمام الجميع وكأنه م زال هنا، ويأكل هنا، وكأنه يحصى معى أمسياته الطويلة المملة.

لم أمكث لحظة برلت إلى دكان النقال

- مسو إبراهيم، والذى لديه عمر هصم، ماذا أعطيه؟

- أعطيه «عروسة» بكاء يا مومو، انتظر بن لدى ه عروسة ضريبة.

- شكر، سأصعد على التور وأحعله يتحررها

بالقود اتى تركها لى أبى يمكن أن أتماسك شهراً، تعلمت أن أفند بمصاهه لكى أملا الاستثمارات الضرورية، لكى أرد على حصبات المدرسة استثمرت أطبع لشخصى، كل ليلة كنت أصعب طسقا أمامى، فقط كنت فى نهايه العشاء ألقى بطعامه فى البالوعة.

كنت كل نصح لبال أجلس فى مقعد والدى وألصق «الدوفر» الخاص به وحده، وأصعب بعض الدقيق الأبيض على شعرى من أجل الجيران الذين فى مواجهتنا، بينما كنت أقرأ قرآنا جديدا أهده لى مسيو إبراهيم بعد أن رجوته ذلك.

وفى المدرسة قلت لنفسى إننى ليست لى لحظة أضيعها: يحب أن أقع فى الحب، لم يكن هناك خيار، وبما أن المدرسة لم تكن محتلطة، فقد وقعا جميعا فى حب أسة البواب ميريام التى عرفت سريعا وعم سنواتها الثلاث عشرة أنها تستحوذ على عواطف ثلاثمائة من المراهقين العطشى، أخذت أعارلها بلهفة من يحاول إيقاظ نفسه من العرق.

ابتسامة!

كان على أن أثبت لنفسى أنه من الممكن أن يحسى أحد، وكان على أن أجعل العالم كله يعرف ذلك قبل أن يكشف أحد أن والدى اللدين كانا مجبرين على تحملى قد فصلا الهروب منى.

رويت لمسيو إبراهيم كيف غروب ميريام، ظل يسمعى وعلى وجهه ابتسامة من يعرف نهاية القصة، لكى تظاهرت بأبى لم ألحظ ذلك

- وكيف حال والدك؟ إنى لم أعد أراه فى الصباح.

- لديه الكثير من العمل وهو يضطر الآن فى عمله الجديد أن يخرج مبكرا.

- حقا؟ أوليس غاضبا من أنك تقرأ القرآن؟

- أبى أختبى على أى حال... ثم إننى لم أفهم منه شيئا.

- حين تريد أن تتعلم شيئاً فليس عليك بكتاب ، وإنما علينا أن نتحدث إلى إنسان ، أنا لا أؤمن بالكتب .

- ومع ذلك فأنا يا مسيو إبراهيم تقول لى دائماً إنك تعرف ما فى . . .

- نعم إنى أعرف ما فى قرأنى مومو إنى أتوق لرؤية البحر ، ماذا لو ذهبنا إلى بورماندى ؟ أتحب أن آخذك إلى هناك ؟  
- حقاً ؟

- لو وافق والدك طبعاً .

- سيوافق .

- أنت متأكد ؟

- أقول لك إنه سيوافق .

حين وصلنا إلى بهو فندق «جراند أوتيل» فى كانور ، كان ذلك أكثر مما أستطيع احتمال ، لم أملك معى ، أخذت أبكى ، ظلمت أبكى ساعتين ، ثلاث ساعات ، لم أستطع أن ألقط أنفاسى .

كان مسيو إبراهيم ينظر إلى وأنا أبكى ، ظل ينتظر بصر أن أبدأ فى الحديث ، فى النهاية نطقت :

- هذا المكان جميل يا مسيو إبراهيم ، جميل جداً ، إنى لا أستحق كل هذا .

ابتسم مسيو إبراهيم :

- الحمال موجود فى كل مكان يا مومو ، أينما وجهت نظرك ، هذا فى قرأنى .

بعد ذلك مشينا على امتداد الشاطئ .

- أتدرى يا مومو أن الإنسان الذى لم يطلع الله على الحياة بشكل مباشر لا يمكن أن يطلع عليها من خلال كتاب .

حدثته عن ميريام ، حدثته عنها بقدر ما تحاشيت الحديث عن والدى ، فبعد أن قبلتنى ميريام فى بلاط حاطى ودها ، بدأت تلفظنى وكأننى مرشح غير مناسب .

- لا عليك ، قال مسيو إبراهيم ، إن حبك لها مدك لك ، أنت الذى تملكه حتى لو هى رفضت ، فهى لن تستطيع تعبيره ، كل ما فى الأمر أنها لن تستمتع به ، إن ما تعطيه يا مومو يظل لك طوال العمر ، أما ما تبقى عليه فهو ضائع إلى الأبد .

- وأنت هل لك زوجة ؟

- نعم .

- ولماذا هى ليست معك ها ؟

أشار إلى البحر بأصبعه .

- إن البحر هنا بحر إنجليزى حقاً ، أخضر ورمادى ، إنها ليست

الألوان الطبيعية للماء، تكاد تظن أنه يتحدث ولكنه  
إعلانية

.. لم تجب على يا مسيو إبراهيم بخصوص زوجتك، ماذا عن  
زوجتك؟

.. عدم الجواب هو أيضا جواب بامو مو.

كل صباح كان مسيو إبراهيم هو أول من يستيقظ، كان  
يفترب من الباردة ليستشق ضوء النهار ثم يبدأ تدريباته  
الرياضية ببطء، كل صباح، طوال عمره، تدريباته  
الرياضية، كانت لديه مرونة غير معقولة، ومن على  
وسادتي معين نصف مفتوحتين كنت أرى ذلك الشاب  
طويل القامة غير المكترث الذي لابد أنه كان مسيو إبراهيم  
منذ زمن بعيد.

مما حأتني الكرى كانت أسى اكتشفت ذات يوم في الحمام  
أن مسيو إبراهيم قد أجريت له عملية الختان.

.. أنت أيضا يا مسيو إبراهيم؟

.. المسلمون واليهود يا مومو، إنه قربان إبراهيم، لقد قدم طعمه  
لله قائلا له إن بإمكانه أن يأخذه، إن قطعة الخلد تلك التي  
تنقصها هي علامة إبراهيم، فهي الختان يمسك الأب بابنه،  
الأب يقدم آلامه في ذكرى قربان إبراهيم.

مع مسيو إبراهيم أدركت أن اليهود والمسلمين وحتى  
المسيحيين كان لهم رجال عظام كثيرون مشتركون قبل أن  
يتعاركوا فيما بينهم، ولم يكن هذا يعنى لكنه كان  
يريدنى.

بعد عودتنا من نورماندى، حين دخلت الشقة المظلمة  
الخالية، لم أشعر باختلاف، لا، لكنى شعرت بأن العالم  
يمكن أن يكون محتلما، قلت لنفسى إن بإمكانى أن أفتح  
البوابد، إن الحوائط يمكن أن يكون لونها أفتح، قلت لنفسى  
إنى لم أكن مضطرا أن أحتفظ بهذا الأثاث الذى كان يحمل  
رائحة الماضى، ليس الماضى الجميل، وإنما الماضى الغابر،  
العطر، ذو الرائحة الكريهة، كحبة مسح الأرضية

لم يشق معى نقود، بدأت أبيع الكتب بأحزمة لباعة الكتب  
على أرصفة نهر السين والذين كنت قد عرفتهم عن طريق مسيو  
إبراهيم أثناء تزهنا، وفى كل مرة كنت أبيع كتابا كنت أشعر  
أننى أكثر حرية

مضى على اختفاء أبى ثلاثة أشهر الآن، كنت ما زلت  
أنصرف وكأنه موحود، كنت أطلع لاشين، ومن الغريب أن  
مسيو إبراهيم أصبحت أسئلته عنه أقل فأقل، وعلاقتى بمريام  
أحدث تسوء أكثر فأكثر، لكنها كانت تمنحنى موضوعا جيدا  
للمحديث فى الليل مع مسيو إبراهيم.

فى بعض الأمسيات كنت اشعر بانقباض فى قلبى لأنى  
كنت أفكر فى پوپول، الآن وقد أصبح أبى غير موجود كنت  
أود أن أعرف پوپول، بالتأكيد كنت سأقبله أكثر لأن أحدا لم  
يكن سيقذف به فى وجهى وكأنه الصورة الصمد لصورتى  
العديمة القيمة، كنت كثيرا ما اوى إلى الفراش وأنا أفكر فى أنه  
فى مكان ما فى هذا العالم يوجد لى أخ وسيم ومثالى لا  
أعرفه، لكن ربما سألقاه فى يوم من الأيام.

ذات صباح طرقت بابى الشرطة، صاحوا كما فى الأفلام:

— افتح! الشرطة!

قلت لنفسى: قصى الأمر إذن، قد كذبت كثيرا، الآن  
جاءوا يقبضون علىّ.

وصعت علىّ الـ «روب» وفتحت جميع الأقفال، بدوا لى  
أقل شرا مما كنت أتخيل، حتى إنهم طلبوا منى بكل دوق إن  
كان بإمكانهم الدخول، كنت أفصل أن أرندى ملابسى قبل أن  
أساق إلى السجن.

فى «الصالون» أخذ المفتش يدى وقال لى فى لطف: يا بنى  
إن لدينا خبرا سيئا لك، والدك توفى.

لست أدري ما الذى أدهشنى أكثر؟ وفاة والدى أم الطريقة  
المهذبة التى تخاطبنى بها الشرطى؟

ارتعيت على الفور فى المقعد الذى كان يجلس فيه أبى.

— لقد ألقى بنفسه تحت القطار بالقرب من مارسيليا.

هذا أيضا كان عريبا أن يذهب ليفعل ذلك فى مارسيليا،  
القطارات توجد فى كل مكان، وأكثرها توجد فى باريس، من  
المؤكد أننى لن أفهم والدى أبدا.

— الدلائل كلها تشير إلى أن والدك كان فى حالة من اليأس  
الكامل وأنه أنهى حياته بنفسه.

والذى انتحر، هاك شىء لن يسهم فى تحسين حالتى، وهى  
النهاية وجدت نفسى أفضل عليه والدا هجرنى، كان بإمكانى  
على الأقل أن أفترض أنه كان سيشرح بالندم.

بدا أن رجال الشرطة يتعمهون صمتى، نظروا إلى المكتبة  
الخاوية من الكتب والشقة الكئيبة من حولهم وهم يقولون  
لأنفسهم: خلال دقائق سنخرج من هنا.

— من هم الأشخاص الذين علينا أن نخبرهم يا بنى؟

هنا كان لى أحيرا رد فعل مناسب، نهضت وذهبت  
لإحضار قائمة الأسماء الأربعة التى تركها لى والدى عند  
رحيله، وضعها المفتش فى جيبه.

— سنقدم ذلك للتأمينات الاجتماعية.

ثم اقتراب مني معينين كعيني كلب كسبير ، خشيت أن  
يباعني بعمل غيصة

.. الآن لدى موضوع حساس أريد أن أطلعه منك ، إن عليك أن  
تعرف على الجثة

كان هذا بمثابة إشارة الخطر ، بدأت أصرخ كأن أحدا قد  
صعق عني زر فانطلق الصوت ، بدأ رجال الشرطة يتحركون  
من حولي بحثا عن زر الإيقاف لكن للأسف كنت أنا وحدي  
هذا الزر ولم أكن أستطيع التوقف .

كان مسيو إبراهيم رائعا ، صعد عند سماعه صراخي ،  
لقد فهم الموقف على الفور ، قال إنه هو الذي سيذهب إلى  
مارسيليا للتعرف على الجثة ، في البداية ساورت رجال  
الشرطة بعض الشكوك ، فقد كن من الواضح من مطهره أنه  
عربي ، لكسي عدت ثابته إلى الصراح فقبلوا ما عرضه مسيو  
إبراهيم .

بعد الدفن سألت مسيو إبراهيم :

.. منذ متى وأنت تعرف أن والدي قد تركني ؟

.. منذ كادور ، لكن أنتعرف يا مومو ؟ يجب ألا تضمر كراهية  
لوالدك

.. حقا ؟ وكيف ذلك ؟ أب يفسد حياتي ويهجرنى ويتحر ؟ إنه

حقا محل ثقة هائل ، وبعد ذلك يجب على ألا أضمر له  
كراهية ؟ !

.. إن والدك لم يكن أمامه مثل يحتدى به ، لقد فقد والديه  
وهو صغير جدا ، حين ألقى البازيون القبض عليهما وتوفيا  
في معسكرات الاعتقال ، إن والدك لم يستطع تقبل أنه بما  
من كل ذلك ، ربما كان يشعر بالذنب من أنه مازال على  
 قيد الحياة ، وليس من قبيل المصادفة أنه انتهى تحت  
عجلات الفطار .

.. حقا ، لماذا ؟

.. لقد أفل الفطار والديه إلى حتمهما ، وربما كان هو يبحث عن  
قطاره منذ زمن ، وإذا لم تكن لديه القوة على الحياة فذلك لم  
يكن بسببك يا مومو وإنما بسبب كل ما حدث قبلك ، أو ما  
لم يحدث .

ثم دس مسيو إبراهيم بعض الأوراق النقدية في جيبى .

.. خذ ، اذهب إلى شارع « بارادى » إن العتبات يتساءل أين  
كتابك الذي تكتبه عنهن ؟ ..

بدأت أعير كل شيء في شقة شارع « بلو » ، كان مسيو  
إبراهيم يعطيني علب الطلاء والفرش ، كما كان يعطيني  
أيضا بعض الصائح في التعامل مع موظفة التأمينات  
الاجتماعية .



بعد ظهر أحد الأيام، بينما كنت قد فتحت كل النوافذ لإطلاق رائحة الطلاء الـ «أكريليك»، دخلت امرأة إلى الشقة، لست أعرف لماذا، ولكن من القلق النادى عليها، من ترددها، من الصعوبة التي وجدتها في المرور ما بين السلالم الخشبية المصوبة في الغرفة، من محاولتها تمادي بقع الطلاء على الأرض، فهمت على الفور من تكون.

نظرت بأني مغمى تماما في العمل وأني لم أخطئها، أخيرا تنحنحت بصوت مسموع، فتصنعت المفاجأة - عمن نحشين؟

- أبحث عن موسى.  
أجابت أمي

كان عجيبا أنها وجدت صعوبة في نطق ذلك الاسم، وكأنه قد توقف في حلقها.

أعطيت بمى طرف الألفى لها بالا - ومن أنت؟

- أنا أمه

يا لها من مسكينة أشمقت عليها قليلا، حالتها يرئى لها، لا بد أنها عانت بعنف حتى وصلت إلى هنا، أخذت تنظر إلى تمعن محاولة تفقد قسما وجهي، بدت خائفة، خائفة جدا.

- وأنت، من أنت؟  
- أنا؟

انتاشي رغبة في أن ألهو قليلا، فمن يريد أن يضع نفسه في موقف كهذا؟ خاصة بعد مرور ثلاثة عشر عاما؟  
- يسموني مومي.

كأن وجهها قد اشرخ.  
أصفت وأنا ألهو:

- إنه تصغير لاسم محمد

بدا وجهها أكثر شحوبا من الطلاء الذي دهنته على الجدران

- حقا؟ أأنت موسى؟

- كلا، لا تجعل الأمور تحتلط عليك أن محمد بلعت ريقها، لم تكن عاضة غاما

- لكن ألا يوجد هنا مسمى يدعى موسى؟

وددت أن أجيب: «لست أعرف، إنك أمه فعليك أنت أن تعرفي»، لكن في اللحظة الأخيرة أمسكت عن ذلك لأن المرأة المسكينة بدت غير قادرة حتى على الوقوف على ساقيها، بدلا من ذلك لجأت إلى كذبة صغيرة تريحها أكثر.

- موسى رجل يا سيدتى، لقد ستم العيش هنا، فهذا المكان لا يحمل له أية ذكريات سعيدة.

- حقا؟

ساءلت نفسى إن كانت قد صدقتنى، لم يبد عليها أنها قد اقتنعت، ربما لم تكن فى النهاية بكل هذا الغباء.

- ومتى سيعود؟

- لا أعرف، حين رجل قال إنه يريد أن يبحث عن أخيه.

- أخيه؟

- نعم إن لمويس أخا.

- أحقا؟

بدت على وجهها علامات الحيرة.

- نعم، أخوه بوبول.

- بوبول؟

- نعم يا سيدتى بوبول شقيقه الأكبر.

ساءلت إن كانت تعتبرنى متحلفا أم أنها صدقت أنى

محمد.

- لكنى لم أررق بأطفال قل موسى، لم أرزق بأى طفل يدعى بوبول.

هنا بدأت أنا أضطرب.

لاحظت ذلك، بدأت تترنح بشدة فهرعت إلى مقعد قريب وفعلت أنا أيضا نفس الشيء.

ظللتنا ننظر إلى بعضنا البعض فى صمت، بينما أخذت رائحة الطلاء الـ «أكريليك» يخنق أنفاسنا، ظلت تتفحصنى بدقة دون أن تدع رمشة لعيني تغفلت منها.

- قل لى يا مومو.

- محمد.

- قل لى يا محمد، هل سترى موسى ثانية؟

- من الجائز.

قلت ذلك وكأننى غير مكترث، ولا أذكر أنى كنت أبدا بهذه الدرجة من عدم الاكتراث، أحدثت تتفحص أعماق عيني، بإمكانها أن تقوم بتفشيرى كحبة المأكهة إذا أرادت، لكنها لن تتزع منى شيئا، إنى واثق من نفسى.

- إذا رأيت موسى فى يوم ما قل له إننى كنت صغيرة جدا حين تزوجت والده، وإنى لم أتزوجه إلا لكى أترك بيت أسرتى،

إننى لم أحب والد موسى قط ، لكننى كنت على استعداد أن أحب موسى ، ثم حدث أن قابلت رجلاً آخر ، إن والدك . . .  
- معدرة ؟

- أقصد والده ، والد موسى ، قال لى ارحلى لكن عليك أن تتركى موسى وإلا . . . ورحلت ، فضلت أن أعيد بناء حياتى ، أن أحيا حياة بها قدر من السعادة .  
- بالتأكيد ذلك أفضل .  
أطرقت بعينها .

اقتربت منى ، شعرت أنها تريد أن تقلبنى ، تظاهرت بأنى لم أخط ذلك .  
سألتنى فى صوت متوسل :

- هل متخير موسى ؟  
- من الجائز .  
فى نفس المساء ذهبت للقاء مسيو إبراهيم وقلت له ضاحكاً :

- متى متبئانى يا مسيو إبراهيم ؟  
قال وهو يضحك هو الآخر :  
- ابتداء من الغد إن أردت يا صغيرى مومو .  
• • •

كان علينا أن نكافح عالم الرسميات ، الاختتام والموافقات ، والموظفين الذين يصحون عدوايين كلما أيقظتهم من سباتهم ، ولم يكن هناك أحد منهم يرغب فيما ، لكن ما من شىء كان يشط من عزم مسيو إبراهيم .

- الرقص معاً فى حيسا يا مومو ، لم يبق عيباً إلا أن نحصل على الموافقة .

ووالدتى انتهى بها الأمر ، بمساعدة موطعة التأميمات الاجتماعية ، أن قبلت مساعى مسيو إبراهيم .

- وهل زوجتك يا مسيو إبراهيم قابلة بذلك ؟  
- زوجتى عادت لبلادى منذ زمن بعيد ، إنى أفعل ما أريد ، لكن إذا أردت بإمكاننا أن نذهب لرؤيتها هذا الصيف

فى اليوم الذى حصلنا على الوثيقة المشهودة التى نعلن أسمى من الآن فصاعداً ابن من اخترته ، قرر مسيو إبراهيم أننا يجب أن نشترى سيارة لنحتفل بذلك .

- سنقوم برحلات يا مومو ، وهذا الصيف سنذهب معاً إلى الهلال الذهبى ، ساريك البحر ، البحر المريد ، مسقط رأسى .

- أليس من الأفضل أن نذهب إلى هناك على بساط الريح ؟  
- نخذ كنالوجا واختر سيارة .

- حسن يا بابا

- أهى رخصة قيادة هذه ؟

- أليس هذا واضحاً ؟

- حسن ، إنا نقترح عليك أن تدفع ثمنها بأقساط شهرية على ثلاث سنوات ، إن عليك . .

- حين أقول لك إسى أريد شراء السيارة فذلك لأننى قادر على شرائها ، سأدفع لك نقداً .

كان مسيو إبراهيم قد جرح ، فمن الواضح أن هذا البائع قد ارتكب خطأ على خطأ .

- إذن حرر لنا شيكاً بمبلغ . .

- كف عن ذلك ، قلت لك إننى سأدفع نقداً ، بالمال ، مال حقيقى

وضع ررما من الأوراق النقدية على المصدة ، ررما جميلة من العملات الورقية القديمة التى رصت فى أكياس من البلاستيك .

كاد البائع بهتق .

- لكن . . لكن . . لا أحد يدفع نقداً . . هذا غير معقول !

- ماذا فى الأمر ؟ أليست هذه نقوداً ؟ لقد قبلتها أنا فى حزيتى ، فلماذا لا تقبلها أنت ؟ مومو ، هل دخلنا محلاً جاداً ؟

كم هو غريب أن تشير نفس الكلمات مشاعر مختلفة فى نفسك ، فعندما كنت أقول « بابا » لمسيو إبراهيم كان قلبى يصحك فرحاً ، كنت أمتلئ ثقة ، كان المستقل يتلألأ أمام عيني .

ذهبنا إلى مدير صالة بيع السيارات .

- أريد شراء هذا «الموديل » ، اننى هو الذى اختار . .

كان مسيو إبراهيم أسوأ منى فيما يتعلق باستقاء الكلمات ، كان يضع كلمة اسى فى كل جملة وكأنه قد اخترع الأبوة لتوه .

بدأ البائع يكيل المدائح لخصائص المحرك .

- لا نجهد نفسك فى محاولة إقناعى ، أقول لك إسى أريد شراءها .

- ألدبك رخصة يا سيدى ؟

- بالطبع .

ها أخرج مسيو إبراهيم من حافظةه اخلدبة ورقة يعود تاريخها إلى العصر الفرعوى على الأقل ، فأخذ البائع يتمحصر الوثيقة فى فرع وكأنها بردية قديمة ، أولاً لأن معظم حروفها كانت قد محيت ، وثانياً لأنها كانت مكتوبة بلعة لا يعرفها .

- حس ، إذن سمعل التالي - ستكون السيارة جاهزة للاستلام خلال خمسة عشر يوما .

- خمسة عشر يوما ؟ هذا غير ممكن ، سأكون قد مُت خلال خمسة عشر يوما .

بعد يومين أرسلوا لنا السيارة أمام دكان القالة ، لقد كان مسيو إبراهيم شديدا معهم .

حين ركب السيارة طل مسيو إبراهيم يلمس بحذر جميع الأزرار بأصابعه الطويلة الرفيعة ثم أخذ يمسح عرقه ، لم تكن لديه خبرة في السيارات .

- لست أعرف يا مومو .

- ألم تتعلم القيادة ؟

- نعم . . منذ زمن . . مع صديقي عبد الله ، ولكن . .

- ولكن ماذا ؟

- لكن السيارات لم تكن هكذا .

كان مسيو إبراهيم يجد صعوبة حقا فيما عليه أن يفعل .

- قل لى يا مسيو إبراهيم ، السيارات التى تعلمت عليها ، ألم تكن تجرها الخيول ؟

- بل الحمير يا صغيرى مومو ، الحمير .

- ورخصة قيادتك يوم اشترينا السيارة ، ماذا كانت ؟

- خطاب قديم من صديقى عبد الله يروى لى فيه عن محصوله فى ذلك العام .

- إذن نحن فى ورطه .

- ها أنت قلتها يا مومو .

- أوليس هناك شيء فى قرأنت هذه المرة يمكن أن يهديت إلى حل .

- إن القرآن ليس دليل تشعيل ميكانيكى ، إنه مهيد فى الروحانيات وليس فى الحداثد ، ثم إن وسيلة الانتقال فى القرآن كانت الجمال .

- لا تعصب يا مسيو إبراهيم

فى النهاية قرر مسيو إبراهيم أن يأخذ دروسا فى القيادة معا ، وبما أسى لم أكن قد بلغت السن القانونية بعد ، فقد كان هو من الناحية الرسمية الذى يأخذ الدروس ، بينما كنت أنا أجلس فى المقعد الخلفى دون أن تعوتنى أى من توجيهات المدرب ، وبمجرد أن انتهت الدروس أخرجنا سيارتنا وجلست أنا أمام عجلة القيادة ، وبدأنا نساب فى شوارع باريس فى الليل حتى نتعاضد الزحام

بدأت أتقدم شيئا شيئا .

أخيرا حل الصيف وأخذنا طريق السفر .



آلاف الكيلومترات، عبرنا أوروبا كلها من الجنوب،  
سذهب إلى الشرق الأوسط بشبايك السيارة مفتوحة، كان  
رائعاً أن أكتشف كم يصبح الكون ممتعاً بمجرد أن تسافر مع  
مسيو إبراهيم، وسند كنت أن منتصفاً معجزة القيادة أركز على  
الطريق كان هو يصف لي المناظر الطبيعية والسماء والسحب  
والقري وسكانها جاء حديث مسيو إبراهيم بصوت في رفة  
ورق السجائر، وملكته الخاصة ونشبياته وعلامات تعجبه  
واذهاشه، كان هذا بالنسبة لي هو الطريق من باريس إلى  
إسطنبول، هي لم أر أوروبا بل سمعتها

- أوه! انظر يا مومو، إنا الآن في حي الأعباء، انظر لصاديق  
القمامة

- وماذا عن صديق القمامة؟

- إذا أردت أن تعرف إن كنت في حي عني أو فقير ابحث عن  
صديق القمامة، إذا لم تجد قاذورات ولا صناديق قمامة  
فهذا حي عني جداً، إذا وجدت صديق قمامة ولم تجد  
قاذورات فهو حي غني، إذا وجدت قاذورات بجوار  
صديق القمامة فهو حي لا عني ولا فقير، بل حي سياحي،  
إذا وجدت قاذورات ولم تجد صديق للقمامة فهذا حي  
فقير، أما إذا كان الناس يعيشون وسط القاذورات فهو حي  
فقير جداً جداً.. هنا حي غني.

- طبعي فحن في سويسرا.

- لا يا مومو لا تأخذ «الأوتوروت» السريع، فالطريق السريع  
يقول لك امض فليس هناك ما يمكن أن تراه، إنه من أجل  
الأعياء الذين يريدون أن يذهبوا بأسرع ما يمكن من نقطة إلى  
أخرى، أما نحن فنصنع المثلثات والمربعات كما في  
الهدسة، إنا في رحلة، انحن لي عن طرق صغيرة جميلة  
تريك كل ما يستحق أن يُرى.

- تقول هذا لأنك لست أنت الذي تسوق

- اسمع يا مومو إذا لم تكن تريد رؤية شيء فعليك أن تأخذ  
الطائرة، مثل باقي الناس

- أهذه منطقة فقيرة يا مسيو إبراهيم؟

- نعم، إنها ألانيا.

- وهناك؟

- أوقف السيارة، هل نشم؟ تلك رائحة السعادة، إنها اليونان،  
الناس هنا لا يتحركون كثيراً إنهم يأخذون وقتهم في التفرح  
عليك ونحن عمر أمامهم، إنهم يتنصسون، أتعرف يا مومو، لقد  
أمضيت حياتي كلها أعمل، لكنني لم أكن في عجلة من  
أمرى، كنت أخذ وقتي، لم أكن أسعى لجمع الأموال، أو  
لمراقبة العملاء وهم يصطفون أمام المحل، لا إن عدم العجلة  
تلك هي سر السعادة، ماذا تريد أن تعمل في المستقبل؟

- لا أعرف يا مسيو إبراهيم، ماذا لو عملت في الاستيراد والتصدير؟

- الاستيراد والتصدير؟

هنا بدا أنني أحرزت هدفا: لقد وجدت التعبير السحري «الاستيراد والتصدير»، ظل هذا التعبير يملا فم مسيو إبراهيم فيرده بين حين وآخر، هو تعبير جاد لكنه في نفس الوقت يحمل روح المغامرة، تعبير يحيلك على العود إلى السفر، والمراكب والطرود البريدية، إلى الميزانيات الضخمة، تعبير ثقيل إلى درجة أن مقاطعه تندحرج «الاستيراد والتصدير».

- أقدم لكم اسي الذي سيعمل في المستقبل في الاستيراد والتصدير.

كانت لديها ألعاب كثيرة يلعبها أنا ومسيو إبراهيم، كان يجعلني أدخل إلى الأماكن الدينية معصوم العينين لأنني كل دين من رائحة مكان عبادته.

- هنا توجد رائحة الشمع، إنها كاثوليكية.

- نعم، نحن في كنيسة القديس أنطوان.

- هنا توجد رائحة الخور، إنها أرثوذكسية.

- نعم نحن في كنيسة القديسة صوفيا.

- هنا توجد رائحة الأقدام، إنها إسلامية، الحقيقة أن الرائحة هنا شديدة للعاية.

- ماذا تقول؟ إنه المسجد الأزرق، المكان الذي يحمل رائحة الجسد لا يروق لك؟ هل أقدامك ليست لها رائحة على الإطلاق؟ هل مكان العبادة الذي يحمل رائحة الإنسان، والذي صنع من أجل الإنسان، والذي يوجد بداخله الإنسان، يفرك؟ إن هناك بعض الأفكار الباريسية بداخلك، أما أنا فعطر الجوارب هذا يملؤني ثقة وتواضعا. إنه يجعلني أقول لنفسي إني لست أفصل من جاري، إني أشم نفسي، أشم أنفسا جميعها، وبذلك أكون في حال أفضل.

ابتداء من وصولنا إلى إسطنبول كان مسيو إبراهيم أقل كلاما، كان يبدو عليه التأثير الشديد.

- قريبا سنصل إلى البحر، مسقط رأسي.

مع كل يوم جديد كان يريدنا أن نسير بسرعة أقل، كان يريد التمتع، لكنه كان أيضا حائفا.

- أين هو ذلك البحر، مسقط رأسك يا مسيو إبراهيم؟ أرى إياه على الخريطة.

- أوه لا تزعجني بحرائطك يا مومو، إننا لسنا في المدرسة هنا.

توقفنا عند قرية في الجبل.

- إني سعيد يا مومو ، فأنت بجانبى وأما أعرف ما فى قرأتى . .  
الآن أريد أن أذهب بك إلى الرقص

- إلى الرقص يا مسيو إبراهيم؟

- يجب أن ترقص بكل تأكيد ، إن قلب الإنسان مثل عصصور  
محبوس داخل قمص الحديد ، حين ترقص فالقلب يغرد  
مثل المصفور الذى يتوق إلى الدويان فى الدات الإلهية ، هيا  
لنذهب إلى التكية .

- إلى ماذا؟

• • •

- إنه لرقص غريب هذا!

قلت وبحر نخطى العتة

- هذه هى التكية . . هى مكان للرقص ، إنها مكان للمتعبين .  
اخلع حذاءك يا مومو .

هنا شاهدت لأول مرة الرجال الذين يدورون ، كان الدراويش  
يرتدون جلابا أبيض قصماضا ، جلابا ثقيل لكة باعم ، كانت  
الدحوف تدق وكل درويش يدور حول نفسه كالدوامة

- أترى يا مومو كيف يدورون؟ إن كلا منهم يدور حول قلبه  
الذى هو مكان وجود الرب ، إنها صلاة .

- أتسمى هذه صلاة؟

- بالطبع يا مومو ، إنهم ينفذون كل علاقة لهم بالأرض ،  
بذلك الثقل الذى نسميه الجاذبية ، ويتحولون إلى مشاعل  
معلقة تبنى فى لهب كبير ، جرب يا مومو ، اتعنى .

أخذنا ندور أنا ومسيو إبراهيم .

فى الدورات الأولى أخذت أقول لنفسى إني سعيد مع  
مسيو إبراهيم ، ثم بدأت أقول : بى لم أعد عاصبا من والدى  
لأنه رحل ، وفى النهاية قلت أيضا . فى الحقيقة لم يكن هناك  
خيار حقيقى أمام أمى حين . .

- إيه يا مومو ، هل شعرت بأشياء جميلة؟

- نعم إيه شىء غير معقول ، إن كل أحفادى بدأت تتلاشى ، لو  
أن الدحوف قد استمرت ولم تتوقف لربما كنت قد عالجت  
حالة والدتى ، كم كانت ممتعة هذه الصلاة يا مسيو إبراهيم  
حتى وإن كنت أفصل أن أصلى بحدائى الرياضى ، كلما ثقل  
الجسد خفت الروح .

مند ذلك اليوم كنا كثيرا ما شوق فى التكايا التى كان  
يعرفها مسيو إبراهيم كى ندور ، كان هو فى بعض الأحيان لا  
يدور ، كان يكتفى باحتساء الشاي وعباه نصف مغمضتين ،  
بينما كنت أنا أدور كالجنون ، بل كنت أدور فى الحقيقة كى  
أصبح أقل جنونا

في المساء في ساحات القرى كنت أحاول أن أتحدث قليلا  
إلى الفتيات . كنت أبدأ أقصى جهدي لكن بلا جدوى ، بينما  
مسيو إبراهيم لم يكن يفعل أكثر من أن يحتسى «السوز ابى»  
بنظراته الحميلة الهادئة ، ولم تكن تمر ساعة من الزمن حتى  
كانت تحيط به أعداد كبيرة من الناس .

- إنك كثير الحركة يا مومو ، إذا كنت تريد أن يكون لك أصدقاء  
فيجب ألا تتحرك .

- مسيو إبراهيم ، هل تجدى وصيحا؟

- إنك وسيم جدا يا مومو .

- لا ليس هذا ما أقصده . هل تجد أنى وسيم بالفدر الذى  
يمكن أن يعجب الفتيات . . دون أن أذفع؟

- بعد بضع سنوات سيدفعن هن لك .

- ومع ذلك . . فى الوقت الحالى . . السوق راكد .

- بالطبع يا مومو ، رأيت كيف تنصرف؟ إنك تنظر لهن كأنك  
تقول : «أرايتى كم أنا وسيم» ، لذا بالتأكيد سيضحكن منك ،  
عليك أن تنظر لهن وكأنك تقول «إسى لم أر فى حياتى من  
هى أجمل منك» ، فالرجال العاديون مثلى ومثلك . وليس  
مثل آلان ديون أو مارلون براندو . وسامتهم هى ما يجدونه  
فى المرأة .

نظرنا إلى الشمس وهى تحتفى بين الحبال ، وإلى السماء  
وهى تتحول إلى اللون البنفسجى وأخذ بابا يحدق فى نجمة  
المساء .

- إن هناك دائما سلما وضع أمامنا حتى نهرب من أنفسنا  
يا مومو . الإنسان كان فى البداية معدنا ، ثم نباتا ، ثم حيوانا  
- والمرحلة الحيوانية هى ما لا يستطيع الإنسان أن يساها  
وكثيرا ما يميل إلى أن يعود إليه . ثم أصبح الإنسان بعد ذلك  
إنسانا حصل على نعمة المعرفة والرشد والإيمان ، أنتخيل  
الرحلة التى قطعتها أنت من التراب إلى اليوم؟ ومبما بعد  
حين تكون قد تحطيت حالة الإنسان ، ستصبح ملاك ،  
وستكون قد فرغت من الأرض وما عليها ، إن بإمكانك أن  
تشرع بإرهاصات ذلك حين تدور .

- إننى على أى حال لا أتذكر أيا من هذه الحالات ، هل تذكر  
أنت يا مسيو إبراهيم أنك كنت نباتا؟

- معلوم ، ماذا تظنى أعمل حين أبقى ساعات دون أن أتحرك  
فوق كرسي الصغير فى دكان البقالة؟

ثم جاء اليوم المشهود حين أخبرنى مسيو إبراهيم أننا سنهبل  
إلى بحر ميلاده ونلتقى بصديقه عبد الله ، كان فى حالة  
اضطراب كاملة مثل شاب صغير ، كان يريد أن يستكشف  
الطريق وحسده أولا ، فطلب منى أن أنتظره تحت إحدى  
شجيرات الزيتون .

كان الوقت هو وقت القيلولة فاستندت إلى جذع الشجرة  
ونعست .

حين صحوت كان النهار قد ولى ، وانتظرت مسيو إبراهيم  
حتى منتصف الليل .

مشيت حتى القرية التالية ، حين وصلت إلى الساحة تدافع  
الناس نحوى ، لم أفهم لغتهم ، لكنهم كانوا يتحدثون إلى  
بالإشارات ، وبدا وكأنهم يعرفوننى جيدا ، قادونى إلى منزل  
كبير ، عبرت فى البداية صالة فسيحة حيث جلست بعض  
النساء القرفصاء وهن ينحن ، ثم أخذونى إلى مسيو إبراهيم .

كان ممددا وقد تغطى بالجروح والكدمات والدماء ، كانت  
السيارة قد اصطدمت بحائط .

بدا ضعيفا جدا .

ارتبيت عليه ، ففتح عينيه وابتسم .

.. هذه هى نهاية الرحلة يا مومو .

.. لا ، إننا لم نصل بعد إلى البحر مسقط رأسك .

.. بلى ، أنا قد وصلت ، إن كل أفرع النهر تصب فى نفس  
البحر ، البحر الأوحى .

كان كل ذلك يحدث رغما عنى ، بدأت أبكى .

.. هذا لا يرضينى يا مومو .

.. لكنى خائف عليك يا مسيو إبراهيم .

.. أنا لست خائفا يا مومو ، إننى أعرف ما فى قرأنى .

تلك الجملة لم يكن عليه أن يقولها ، لقد أعادت إلى الكثير  
من الذكريات الجميلة فأخذ نشيجى يزداد .

.. مومو إنك تبكى على نفسك ، أما أنا فقد عشت حياة سعيدة ،  
عشت طويلا ، كانت لى زوجة توفيت منذ زمن بعيد ،  
لكنى مازلت أحبها كما كنت دائما ، كان لى صديقى عبد  
الله الذى سترسل إليه سلامى ، بقالتى الصغيرة كانت تسير  
على ما يرام ، وشارع «بلو» هو شارع جميل حنى وإن لم  
يكن لونه أزرق ، ثم كان هناك أنت .

ولكى أرضيه بلعت كل دموعى ، بذلت جهدا .

ابتسامة !

كان سعيدا وكان أله قد خف .

ابتسامة !

أغمض عينيه فى هدوء .

.. مسيو إبراهيم ؟

.. صه ، لا تقلق ، إننى لن أموت ، بل سألحق بالاتساع  
اللانهاى .



وهكذا كان الأمر .

ظللت هناك بعض الوقت ، تحدثنا كثيرا عن بابا أنا وصديقه  
عبد الله ، ورقصنا كثيرا أيضا .

كان مسيو عبد الله مثل مسيو إبراهيم ، وكأنه مسيو إبراهيم  
وقد ازداد حكمة ، كان مليئا بالأقوال النادرة ، بالقصائد  
المحفوظة عن ظهر قلب ، كأنه مسيو إبراهيم وقد أمضى وقته  
في القراءة أكثر مما أمضاه في ضرب جرس خزينته ، والساعات  
التي كنا نغمضها في الدوران كان يسميها رقصة السيمياء ،  
الرقصة التي تحول النحاس إلى ذهب ، كان كثيرا ما يتلو أبياتا  
لجلال الدين الرومي :

الحى ، اجعله يموت : إنه جسديك

الميت ، اجعله يحيا : إنه قلبك

الحاضر ، خبئه : إنه الحياة الدنيا

الغائب ، اجعله يحضر : إنه

الحياة الآخرة

الكائن ، اجعله يقول إلى العدم :

إنها العاطفة

غير كائن ، اخلفه : إنها النوايا

• • •

وهكذا أصبحت أدور الآن كال دراويش ، كلما ساءت  
الأمور .

أدور وإحدى يدي متجهة إلى السماء ، واليد الأخرى  
متجهة إلى الأرض ، وأدور والسماء تدور فوقى ، وأدور  
والأرض تدور تحتي ، إننى عندئذ لا أكون أنا ، ولكن إحدى  
تلك الذرات التي تدور نحو الفراغ الذي هو كل شيء .  
مثلما كان يقول مسيو إبراهيم :

ـ ذكاؤك في كاحلك ، ولكاحلك طريقة عميقة جدا في  
التفكير .

عدت إلى فرنسا بطريقة «الأوتوستوب» ، أسلمت أمرى لله  
كما كان يقول مسيو إبراهيم حين يتحدث عن المتشردين ،  
شجذت ، ونمت في الخلاء ، وهذا أيضا كان هدية جميلة ، لم  
أشأ أن أنفق الورقات المالية التي دسها لى مسيو عبد الله وهو  
يقبلنى عند رحيلى .

وصلت إلى باريس لأجد أن مسيو إبراهيم قد أعد لكل  
شيء ، لقد حررتنى أخيرا من أسرى :

أصبحت حرا إذن ، ورثت كل أمواله ، بقالته ، قرآنه .

سلمنى الموظف المظروف الرمادى ، وأخرجت منه بعناية  
الكتاب القديم ، سأعرف أخيرا ماذا فى قرآنه .



فى قرآنه كانت هناك وردتان مجففتان وخطاب من صديقه  
مسيو عبد الله .

والآن أنا مومو ، الذى يعرفه الجميع فى الشارع ، لم أعمل  
بالاستيراد والتصدير فى نهاية الأمر ، قلت ذلك لمسيو إبراهيم  
فقط كى أبهره قليلا .

أمى تأتى لرويتى بين آن وآخر ، وهى تسمينى محمدا حتى  
لا تغضبني ، وتسألني عن أخبار موييس ، فأنقلها لها .

قلت لها مؤخرا إن موييس عثر على شقيقه بوبول وإنهما  
سافرا فى رحلة معا ، وبأنى أعتقد أننا لن نراهما قريبا ، ولعله  
لم يعد هناك جسدوى من الحديث فى هذا الشأن ، فكرت  
والدنى مليا - وهى دائما حذرة معى - ثم همست لى برفق :

- على أى حال ربما كان ذلك أفضل ، هناك بعض مراحل  
الطفولة التى ينبغى أن نتركها وراءنا ، مراحل ينبغى أن نبرأ  
منها .

قلت لها إن علم النفس ليس تخصصى ، فأنا بقال .

- أود أن أدعوك ذات مساء على العشاء يا محمد ، زوجى أيضا  
يود أن يراك .

- ماذا يعمل ؟

- مدرس لغة إنجليزية .

- وأنت ؟

- مدرسة لغة إسبانية .

- وبأى لغة سوف نتحدث خلال العشاء ؟ . . لا ، كنت أمزح ،  
اتفقنا .

تورد وجهها بهجة لقبولى ، كان حقا مشهدا يسر العين ،  
وكانى قد أدخلت أخيرا الماء الجارى إلى منزلها .

- إذن ستحضر حقا ؟

- أجل ، أجل .

من المؤكد أنه لموقف عجيب أن يستقبل اثنان من أساتذة  
النظام التعليمى القومى محمدا البقال ، لكن على أى حال ، لم  
لا ؟ إننى لست عنصريا .



وهكذا اتخذت الآن الأشياء مسارها . .

كل يوم اثنين أذهب إليهم مع زوجتي وأولادي .

ولأن أولادي عاطفيون، فهم يسمون مدرسة اللغة الإسبانية «جدتي»، وهذا يدخل السرور إلى نفسها، إنه مشهد جدير بالرؤية، في بعض الأحيان تسألني بحذر وسط اغتباطها إن كان ذلك يضايقني، فأجيبها بالنفي وبأنني أتقبل روح الدعابة .

وهكذا إذن أنا الآن مومو، المستول عن دكان البقالة الواقع في شارع «بلو»، الشارع الأزرق الذي هو ليس بأزرق .

وبالنسبة للناس جميعا أنا العربي الذي على الناصية، وعربي في عالم البقالة تعني «مفتوح في المساء وفي أيام الأحاد» .